التأثيرات المتبادلة بين الثقافة والسياسية في السودان

مصطلح السودان مصطلح ثقافي ، أطلقه اليونان والرومان والعرب على أصحاب الوجود المحروقة ما وراء مصر وشمال إفريقيا وعرف السودان كمصطلح سياسي في منطقة مالي والنيجر – بلاد السودان أما سودان وادي النيل ، فقد جرت عليه تسميات مختلفة ، منها كوش وإثيوبيا كما تعددت أسماء الممالك على النيل مثل كرمة ونبتة ومروي وعلوة وكان آخر هذه الممالك السلطنة الزرقاء أو سلطنة الفونج وجاورها سلطنات الفور وتقلي والمسبعات.

وولد السودان الحالي ككيان سياسي تحت راية الحاكم المصري الخديوي اسماعيل باشا ، بعد ضم دارفور بعد عام 1874م حيث صدر فرمان يسمي المنطقة " السودان المصري وملحقاته الإدارية " ودخلت في الملحقات الإدارية موانيء البحر الأحمر كسواكن وزيلع وباضع وكذلك هرر ومنطقة قولو في يوغندا الحالية ، التي تحتضن ثاني أكبر بحيرة المياه العذبة في العالم ، أي بحيرة فكتوريا.

منطقة التشبع الثقافي والإكتفاء الحضاري :

وعرفت كثير من شعوب هذه المنطقة ، ووردت سيرتها في اللغات القديمة والكتب المقدسة والمناطق الأثرية وكتب الرحالة والمدونات العربية ، مثل النوبة والحبشة والبجاة والزغاوة والزنج ، وقد خدم النوبة (ص) وكانوا جزءا من آل بيته وشاركوا في دفن جثمانه الكريم[1].

وفي الأثر " من اراد أن يتخذ خليلا فليتخذ خليلا نوبيا " ويبدو أن التاريخ بتجلياته انعكس على وجدان أهل المنطقة ، الذين صادقوا نهر النيل واستمدوا حياتهم منه ، وتداخلت حياتهم مع النيل وفيضانه واستعدوا لتقلباته مابين الشح في عطائه، مما يؤدي إلى الجوع والتقشق والفيض الزائد مما يؤدي للدمار والغرق. وأدت هذه العلاقة لقيام المجتمع على الزراعة والري الفيضي والحيوان المنزلي وتقاسم المسئوليات، وقيام السلطة السياسية، وتقاسم الإنتاج وإنشغال الوجدان بالعلاقة مع الغيب الذي يأتي بالفيض في حالة البسط والشح في حالة القبض. وجاءت التصورات الدينية في الوارد الفرعوني " امون رع " والوارد المحلي أبادماك – مع طقوس دفن الموتي والجوار مع الميت ومع النيل والبخور ومحاولات كسر الرتابة والصمت الذين يخيم على المجتمعات عن طريق الفن والنحت والمدافن العظيم " الإهرامات" .

وذاب إنسان هذه المنطقة في البيئة والسلطة، حتى أصبح بيدقا أو خاتما في يد السلطان ، كما أصبح يحسب نظام الري والفيضان والفلك والنجوم والأرض الصغيرة ، لذلك لا عجب أن انتجت هذه البيئة الخدم والمحاسبين والبوابين وجميع الوظائف التي تتطلب الوفاء والولاد

---

[1] راجع باب السيرة في مجلد ابن القيم ، زاد المعاد ، حيث ترد اسماء النوبة الذين كانوا في حشية الرسول الكريم ص مثل شقران وثوبان والاخير شارك في دفن النبي صل مع على وال البيت

والصدق والأمانة – وانتفت الجريمة والتعدي وفي العصور الحديثة لا تكاد تجد شرطيا – وكان إبن المنطقة تابعا للملك وظلا له . كما أن الإستمرارية الثقافية رسمت الوجدان السياسي للملك – ولذلك حينما دخلت الثقافة السياسية احتفظ السلطان باللسان واللغة النوبية ، بينما قبل طقوس الثقافة الإسلامية وشعائرها دون أن يتنازل عن لغتة– وابن المنطقة النوبية ، يحافظ على سمته الأصلية ويعززه حتى في الدائرة السياسية أو الأيدلوجية أو الحركية التي ينطلق منها – فلذلك ما أصدق د. دهب حسن خليل حركة البلاغ وعبده دهب حسنين حركة التحرر الديمقراطي " حدتو " وذهب محمد صالح المؤتمر الشعبي ومحمد عثمان البرهاني في برهانيته ، والذين انخرطوا في الثقافة العلمانية الغربية ، كانوا الأكثر عطاء وانضباطا في الخدمة العامة – نماذج عمر محمد عثمان ومحمد ابراهيم أبوسليم وجمال محمد أحمد ومحي الدين صابر ومن رموز الثقافة الإسلامية اخلاصا الشيخ ابوزيد حمزة وأبنائه.

الثقافة والسياسة وسط النوبة / المستعربة : منطقة التفاعل الثقافي والتقبل للجديد الحضاري:

وتعني بها المنطقة الممتدة ما بين الشلال الثالث والخامس وغلب عليها تسمية ممالك الدناقلة والدفار والشايقية والجعليين وبينهما عشرات القبائل والمجتمعات ، وبما أن هذه المنطقة كانت منطقة أودية تمتد في النيل حتى الصحاري المجاورة ، كما قامت فيها ممالك نبتة ومروي وعلوة، فقد أصبحت منطقة تفاعل وتداخل حضاري وإنساني ، وأدت خبرات إنسان هذه المنطقة إلى ميله للتواصل وتفهم مطلوبات العيش المشترك ، وهذا مما أدي إلى استعراب هذه المنطقة ، التي كانت مثلها مثل مستوطنات ما قبل الشلال الثاني ، لها لهجتها النوبية وثقافتها النيلية ولكنها وبعد دخول القبائل العربية عليها ، تفاعلت مع الحديث الجديد واكتسبت لغته وكثيرا من ثقافته ، كما فتحت له قلبها ودرياها وتصاهرت معه ، ومع إن كثير من المجموعات السكانية ، اتخذت موقعا في الدوحة النبوية ، إلا أن الإشراف الذين برزوا في هذه الممالك لا يمكن أن يكونوا الكثرة التي غطت تماما على المكون المحلي وتفاعلانه مع الكيانات العربية ، ويذكر التاريخ مجيء البيلي الكبير وغلام الله بن عائد في القرن الرابع عشر وأقاموا بصفة مستمره ، كما مر على المنطقة محمد بن سليمان الجزولي ، في رحلته للحج ، عبر دنقلة وسقدي في عام 1404م وزوج أحد بناته لحمد أبودنانة ، وأنجبت حفيدته بنائه السبعة ، اللائي انجبن آل سوار الذهب والغبش ولكن أشهر سليل للأسرة هو عجيب المانجلك سلطان العبدلاب الذي فتح البلاد لمشاهير العلماء والعباد ، وتمت الإشارة إلى الجزولي لأنه ورّث الملتحقين به كتاب دلائل الخيران في الصلاة على رسول الله (ص) والذي يتم ختمه اسبوعيا بقراءة حزب كل يوم . ويبدو أن هذه المنطقة ظلت على إتصال

بمراكز الثقافة الإسلامية كالحجاز ومصر والمغرب بدليل أن الشيخ احمد اليمني (1630 – 1712) هاجر من الحلفايا حتى فاز وسيرته محفوظة[2]. [3].

والشاهد إن إنسان هذه المنطقة ، تفهم مطلوبات العيش المشترك ولذلك كان الاقدر على التعايش، وتقديم التنازلات للآخر ، حيث تنازل عن لهجته واتخذ اللسان العربي وزوج بناته للآخر ، كما هاجر وضرب في الأرض طلبا للرزق والمجد ، ونشرا للدعوة ، حال عبدالكريم صابون في وداي[4].وأبوحليم ود صفية في جبال النوبة ، وآل إسماعيل الولي في كردفان ، وال الترابي في الجزيرة وآل المهدي في السودان ، وقد عرفوا بالجلابة في مختلف انحاء السودان واصبحوا مقبولين كساسة وتجار ومهنيين فمنهم على الميرغني المولود في مساوي وعبدالخالف محجوب والتجاني الماحي والجزولي دفع الله ومحمود محمد طه (ابن مورة) ومحمج عمر بشير ود. يوسف فضل ومؤرخ السودان الأول محمد عبدالرحيم الخ ، ومنتهي القول في المنطقة أنها منطقة نوبة مستعربة ولكن إيمانهم بالعيش المشترك وتقديمهم التنازلات في الارض والعرض وتفاعلهم التجاري والاجتماعي " جلابة وشيوخ " مكن لهم من حيث المقبولية الاجتماعية والسياسية والعلمية .

الأرض المفتوحة وثقافة اللامعقول الإسلامي :

والمقصود المنطقة ما وراء الشلال السادس ، التي ظهرت فيها سلطنة العبدلاب والفونج ، وقلب هذه المنطقة هي سهول الجزيرة الواقعة بين النيلين الابيض والأزرق والبطانة ، ولعل كتاب طبقات ودضيف الله ، المكتوب ربما في الفترة (1795– 1805) تناول إنسان هذه المنطقة أكثر من غيرها ، فهي مناطق الشيوخ والصالحين من فصيلة اللامعقول ، الذين مشوا على الماء، وصاموا الدهر وساحوا في الارض امثال حمد النحلان وحسن وحسونة ، والبادراب وآل الهندي وفرح ودكتوك وعبدالله جماع وعجيب المانجلك وحديثا هي مولد الطريقة السمانية وأستاذها الأكبر الشيخ أحمد الطيب البشير ومركز العركيين والطريقة القادرية منذ أيام تاج الدين البهاري وهي منطقة آل المكاشفي والكباشي – وهي المنطقة التي يستسقي الرضيع مع حليب الأمم ، قصص اللامعقول في الثقافة السودانية ، من الأولياء والشيوخ، الذين يجلبون الغذاء والفاكهة ، الذين اتخذوا من كتاباتهم رقي وحجبات

---

(2) John Lavers , Diversion on a Jounery , or the Traveles of Shay Ahmed al Yamani 1630-1712) P. 223 in The Central Bilad Al Sudan

(3) انظر Tradition & A dapatation , Yousif Fadl and Poul Doorbos , Sudane'se Library No11

(4) راجع محمد عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة السودان

لصغارهم ، وتداوا بوصفات أهل الله كما يسمونهم وماتوا في سبيل الحضرة النبوية في السجادة المهدوية وبايعوا المهدي ابن الثقافة السنارية الذي خاطبهم بخطاب خراب الدنيا وصلاح الدين، وما تزال قبابهم وضرائحهم وتوسلاتهم ومدائحهم تحكي ضروبا من اللامعقول الذي كيف حياتهم الروحية والمادية .

جبرية الدوافع العرقية والقبلية – نماذج المناطق العربية والبجاة والمناطق الزنجية

إن كان النوبة في أقصى أشمال على دين ملوكهم ، ثم أصبح الوفاء والولاء والتماسك والمسالمة ملكة في طباعهم ونفوسهم وهو الأثر الباقي من دين الملك في نمط اجتماعهم ، وإن كان إنسان النوبة المستعربة " منطقة المقرة ثم الدفار والشايقية والجعليين " علمته الظروف المحيطة أخلاف المرونة والمساومة وانصاف الحلول طالبا للعيش المشترك ، فإن إنسان سودان ما بعد الشلال السادس ومنطقة الجزيرة امتزجت ثقافته باللامعقول من فرضيات الثقافة الإسلامية ، ولعل مرد ذلك إلى بيئته الزراعية / الرعوية التي تبذ البذرة وتنتظر فيها كلمة السماء ، كما أن سهولة العيش فيها والمرعي الممتد والنيل المجاور ، مكن لحياة ممكنة دون جهد كبير ، مما وفر إمكانية التأمل ، كما أن مجيء شيوخ التصوف كالبهاري والعركي ومؤخرا الشيخ أحمد الطيب البشير قوي ركائز ثقافة الذوق والتخلي والتجلي والباطن ، ومع إن هناك مشتركات جامعة بين كل أهل السودان إلا أننا هنا نشير إلى بعض الفوارق والمسات المتعلقة بكل مجموعة ، إلا أن هذا لا يعني انقطاع ثقافة لمجموعة عن الآخرة إذ تتداخل الثقافات ولا تتقاطع ، وفي تداخلها تخلق دوائر صغيرة – قد تتشابه مع ثقافة مجموعة خارج إطارها ، فربما اصبحت مجموعة صوفية داخل النوبة أكثر تماثلا مع مجموعة صوفية في الجزئرة من تماثلها مع ثقافة النوبة – ولكن هذا لايبطل القانون ، إذ لكل قاعدة استثناء ، ولا يمكن القطع بمحددات نهائية للحراك الإنساني بأبعاده الروحية والثقافية ، إذ هذه مجرد قراءة نسبية للحراك الإنساني الذي يصعب قراءته من خلال معايير حسابية منضبطة ، إذ من الصعب قراءة الظاهرة الثقافة السياسية في مجملها من خلال التوافق أو الخلاف .

وحينما ننتقل من الحزام النيلي – إلى مناطق القبائل العربية فإن حالها أشبه ما يكون بحال صمام بن ثعلبة في قومه ، حيث ورد في كتب السيرة النبوية ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من صمام بن ثعلبة ، لما أسلم ، اسلم قومه تبعا له على شكيمتهم وقوة بأسهم(5).وما يزال هذا احال القبائل الطوعية والعقل الرعوي في السودان ، إذ الناس فيما تبعا لشيخ القبيلة حتي في مسائل الزواج والطلاق والميراث والدية والحروبات والتابعية السياسية ومن يمثلهم لدى الحكومة– ويكفى أن قبائل رفاعة الهوي وغيرها ظلت تنتخب المرحوم الشيخ منصور العجب

(5) ابن كثير ، السيرة النبوية ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ص 183

في حال حله وإرتحاله وسجنه وكذلك الشكرية مع آل أبوسن ، والرزيقات مع آل مادبو وآل آبياي مع آل دينق ماجوك وآل الحاردلو ، وهذه الجبرية القبلية والدافعية للإتنمار بأمر الشيخ ، واختزال الكتل المتحركة ذاتها في شخص الشيخ ، من مطلوبات الحياة الصعبة ، التي تكثير فيها الصراعات والحروب والمنازعات حول المسارات والماء والحوجة للضامن والآمن في ظروف السلب والنهب وظواهر الفتونه والهمبتة وثقافة الحكمات، يبقى شيخ القبيلة هو الملجأ والملاذ . وفي هذه البيئات ترتفع قيم الشهامة والفروسية وتصبح حاكمة حتى على القيم الدينية ، ومما يحكي عن حرب بين قبيلتين سالت فيها الدماء حتى الركب ، استغفر بعض شيوخ القبيلة الحق سبحانه وتعالي ، ليس من سفك دماء الآخر، ولكن من تأخيرهم للصلاة التي انشغلوا عنها بالدواس والقتال – وقيم الفروسية والشجاعة والسلب يستقيها البدوي مع حليب الأم وتتمكن ملكة مع الغناء الشعبي وثقافة الحكامات ، مما يؤدي إلى تراتيبه في القيم تظل راسخة لايمحوها حتى التعليم.

وما ينطبق على الدافع القبلي يشابهه الدافع العرقي / الشعوبي ، قبائل البجاة استعصت على الآخر الفقيه والصوفي ، أن يحدث الإنقلاب الكبير في حياتها ، ولكن حينما برز وسطها أبنها الشيخ على بيتاي أحدث فيها التحول الاجتماعي ، فتحولت من الهمبتة إلى السلام ومن سرقة الإبل وعدم الأكتراث بالدين ، إلى حفظ القرن ، وعم ذلك التغيير الكبار والصغار ، النساء والأطفال وتقف همشكوريب بابعادها الروحية والثقافية الشاهد الشخاص الحاضر لهذا الإصلاح النابع من داخل البيئة وتلازمة الدافع العرقي / الشعبوي .

ولكن كذلك ، فإن من الشواهد التاريخية ما يشير إلى أنه أحيانا يبطل سلطات الدافعية القبلية والعرقية في ظروف التحولات الكبرى ، والشاهد على ذلك ، حينما أنشأت الحكومة الاستعمارية حزبا لرؤساء القبائل والشيوخ باسم الحزب الإشتراكي السوداني ، كانت حصيلة هذه الحزب وكسبه يائسا أم الأحزاب الحديثة ، بحاضناتها الطائفية والصوفية ، حيث اتجه الصوت السوداني مع الأزهري والمهدي والميرغني ، ولعل مرد ذلك إلى الوعي الذي صحب مؤتمر الخريجين وما أحدثه من ثورة تعليمية ، كما أن نداء الإستقلال كان الاقوي، كما أن ذات زعماء القبائل كان لهم ارتباطاتهم الطائفية والصوفية وربما ساد شعور أن هذه مسئوليات الأحزاب السياسية الصميمة ولا ينفع فيها المخلوق الذي خلقته الإدارة الإستعمارية على عجل.

مناطق اللامعقول غير الإسلامي :

وربما يكون أحيانا الدافع العرقي / الشعبوي أقوي من دافع القومية السودانية ، فمثلا البجاوي العابر للحدود يكون بجاوبا في إريتريا وإثيوبيا ثم يعود سودانيا حينما يعبر للحدود السودانية

وفي الحالتين فإن الرابطة البجاوية هي الباقية ، وهي الأقوي وحتى الرشايدي ، فهو ابن القبيلة في السودان وكذلك إينها في الجزيرة العربية ، والراية القومية أو الوطنية مجرد وظيفة تسهل له مهامه ، وكذلك شأن القبائل المشتركة ما بين غرب إفريقيا ودارفور ، فهو زغاوة في السودان وكذلك في تشاد وتراتبية الدولة الحديثة لا تقدح في إنتمائه العرقي . ومن الظواهر هذه المنطقة ظواهر اللامعقول الإسلامي ، مثل الزار ونظام الكجور وانتشار الخرافة باحداث الفعل الخارق وثقافة الفروق والوسيط الروحي الذي ينزل المطر ويعطي الشفاء والعافية وإستخدام الرمل والقدح والودع.

والناظر للحركات الإحتجاجية (اخوانية ، شيوعية ، بعثية ، عمالية ، نقابية يجد أن جذور المنتمين لها في الغالب ، ممن انقطعت أواصرهم بالبنية التقليدية وأصبحوا يبحثون في المدن عن أواصر إنتماء جديدة – مثلا بابكر كرار ابن مدني والخرطوم والمذاهب الفكرية والغربية والقراءة والتواصل، وكذلك الصائم محمد ابراهيم ومحمد يوسف محمد وعبدالخالق محجوب وبدرالدين مدثر والترابي وعوض عبدالرازق ومنهم على شاكلتهم . وربما يوجد استثناء لايخل بالقاعدة. كما تحولت بعض الحركات الاحتجاجية إلى حركات مسلحة تحت رايات ومسميات قومية ولكن جذورها الاجتماعية مركوزة في القبيلة والعرق . أما نوبة جبال النوبة ، ضحايا الآخر القادم من السهل سواءً أكان عربيا أو تركيا أو انجليزيا، ترك هذا الآخر جروحا وندوبا في الذاكرة النوبية ، التي تفيض بقصص الاسترقاق والعبودية والدونية ، لذا لاذوا بالجبال التي جعلت لسانهم ثلاثين لهجمة ، كما طفح كيلهم في تصورات وتنظيمات سياسية واجتماعية موازية، مسلحة وانعزالية .

واحدة من إشكالات البناء القومي في السودان ، أن الدولة ظهرت قبل الأمة ، وأن الدولة العلمانية القطرية السودانية فرضت وجودها عن طريق الحديد والنار ، وأن تراتبية الدولة الحديثة بجيوشها ومؤسساتها السلطوية والإدارية، ما شاها الكثيرون مصانعه ومداهنه ، كما مشاها القادة بعد أن غيروا وبدلوا تمام في طرائق تفكيرهم ، فمثلا السيد عبدالرحمن المهدي نسخ مهدية أبيه ليس فقط عن مصانعه أو مداهنه ولكن عن قناعة بفكرة الدولة العلمانية الوطنية المعدلة ، أما السيد على الميرغني فقد كان منذ البداية مع الدولة الإنجليزية ومشروعها القطري العلماني ، والمهدي في ظروف السودان أصبح هو كتشنر ودولته.

وجدت فكرة الدولة قبولا في المناطق النيلية الوسيطة حين قامت الممالك النيلية القديمة ، كرمة ونبتة ومروي والمقرة وعلوة لأنها ممالك تخلف طبيعي وتلقائي – وفرق بين التخلق الطبيعي والخياطة السياسية ، لأن السودان الحديث قام على خياطة سياسية في ظروف مشروع دولة النخبة التركية المتمصرة (1820–1885) او مطلوبات الإدارية الاستعمارية الإنجليزية 1899– 1954 وكان هناك إحساس في مناطق كبيرة كدارفور وجنوب السودان انها الحقت ما يسمي السودان الحاقا – ولذا مايزال تلاحق السودان مطلوبات تقرير المصير والمشورة الشعبية – وما يزال أمام اهل

السودان طريق طويل للوصول إلى مشروع الجماعة الوطنية كمقدمة لمشروع الأمة في ظل تنوع روحي وفكري وثقافي وثنائية لغوية وحركات احتجاجية ومطلوبات التنمية في ظل الفقر وجدب الريف وتطلعات المتغيرات الاجتماعية والسياسية وثورة التقانة وأشواق النهضة .

أ.د. حسن مكي محمد أحمد